شوقى ضيف .. رمزٌ للأعلام الشوامخ

أ.د. حسنين محمد ربيع

نائب رئيس جامعة القاهرة

فى تاريخ كل أمة من الأمم أعلام شوامخ، تعتز بهم وتعتبرهم علامات مضيئة على طريق تقدمها ونهضتها، وذلك لما تميزوا به من أصالة وإبداع، ولما أسهموا به فى إثراء فكر الأمة ووجدانها.

ومن حق جامعة القاهرة أن تفخر بأنها قدمت لمصر نخبة ممتازة من رواد العلم والفكر والفن والأدب الذين قادوا مسيرة هذه الأمة، وحركوا كوامنها، وفجروا طاقتها الإبداعية فى كل مجالات الحياة. ومن بين كليات هذه الجامعة العتيدة تحتل كلية الآداب موقع الصدارة، لا باعتبارها أقدم الكليات فحسب، وإنما باعتبارها الأرض الطيبة التى أنبتت النصيب الأكبر من هذه الصفوة من أبناء مصر المبدعين.

وإذا كنا نلتقى اليوم لنكرم أستاذنا الجليل الدكتور شوقى ضيف باعتباره حلقة مضيئة فى السلسلة الذهبية لكلية الآداب، تلك الحلقة التى يتألق فيها طه حسين وأحمد أمين وأمين الخولى وزكى نجيب محمود، فإننا فى الحقيقة نكرم فيه مجموعة من القيم التى نعتز بها، والتى يجسدها شخصه وسلوكه وعطاؤه العلمى، والتى غرسها فى كثير من تلاميذه ومريديه على مدى أكثر من نصف قرن من الزمان.

وإذا كان شوقى ضيف –باعتراف الجميع– واحداً من أبرز رواد الدراسات الأدبية فى العصر الحديث، فللحق أقول إنه من أغنى الشخصيات المعاصرة، وأغزرها إنتاجًا، وأشدها أصالة وإبداعًا.

obeikandl.com

ولو لم يكن له إلا موسوعته الضخمة التى أرخ فها للأدب العربى فى عصوره المختلفة بدءاً من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث، لكفته فخراً واعتزازاً. ولكنه لم يكتف بالتأريخ للأدب العربى والغوص فى أعماقه واستخراج لآلئه ورصد ظواهره واتجاهاته التجديدية كما فى كتبه عن: الفن ومذاهبه فى الشعر العربى، والفن ومذاهبه فى النثر العربى، والتطور والتجديد فى الشعر الأموى، والشعر وطوابعه الشعبية على مر العصور، والبحث الأدبى: طبيعته ومناهجه وأصوله ومصادره، وإنما مضى يؤرخ لفنون هذا الأدب كما فى كتبه عن النقد، والمقامة، والترجمة الشخصية، وعن فن الرثاء، والرحلات، ومضى يدرس أبرز رجاله فى مختلف العصور كما فى كتبه عن ابن زيدون، والبارودى، وشوقى، والعقاد.

وكأنما ضاق الأدب العربى بمختلف عصوره وبيئاته وفنونه عن أن يستوعب عبقرية شوقى ضيف، أو أن يستنفد طاقاته الإبداعية، فمضى يؤرخ للبلاغة العربية، والنقد الأدبى والمدارس النحوية، بل مضى إلى ما هو أكثر من ذلك حين كتب عن (تجديد النحو) وعن (التيسيرات اللغوية). وحين دخل مجال التحقيق فأرسى فيه تقاليد راسخة، وأخرج فيه أعمالا رائدة مثل كتاب (الرد على النحاة) لابن مضاء القرطبى.

ولم تقف جهود شوقى ضيف عند علوم اللغة والنحو والأدب، ولم يقتصر عطاؤه على هذه المجالات، وإنما تجاوزها إلى آفاق أرحب فكتب عن (سورة الرحمن وسور قصار)، وحقق (الدرر فى اختصار المغازى والسير) لابن عبد البر، وشارك فى تحقيق (المغرب فى حلى المغرب) لابن سعيد الأندلسى، و (خريدة القصر وجريدة العصر) للعماد الأصفهانى.

ويكفى أن تحصى مؤلفات شوقى ضيف وأن تنظر فى المجالات المتنوعة التى غطتها وفى الطبعات الكثيرة التى صدرت منها، لتدرك أنك أمام محيط يصعب اجتيازه وإدراك أعماقه، وبحر من العلم والفضل والأدب لا تدرك شطآنه، ولا تحصى جواهره ولآلئه، ونهر يتدفق بالخير والصخب والنماء فى عذوبة ويسر، بحيث لا تستغنى عن مائه، ولا

تشبع من خيراته.

ويبقى بعد هذا كله وقبل هذا كله، القدوة فى سلوكيات شوقى ضيف. فلقد كان دائما نموذجاً راقيا للنقاء والصفاء والعطاء الذى لا يعرف الحدود، والحرص على التقاليد الجامعية الأصيلة التى ارتفع بها إلى أقصى الذرى.

وما أظننى مستطيعاً أن أوفيه حقه من الشكر والثناء على ما قدم لوطنه وأمته. وحسبى أن أقول له إنه مدرسة تعلمنا منها الكثير، وأنه منارة من المنارات الشامخة التى تعتز بها جامعة القاهرة، ويعتز بها كل مصرى على أرض هذا الوطن. وإن صحبتنا له فى كتابه (معى) قد أظهرتنا على كثير من جوانب شخصيته الثرية، وخصائص أسلوبه الفريد فى الكتابة.

بورك فيك يا أستاذنا الجليل، وبورك فى كل جهد بذلته من أجل أمتك، وبورك فى كل كلمة سطرتها يدك، فكانت شعاعا من الضوء ينير العقل، ويصقل الذوق، ويشبع الوجدان.

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يمد فى عمرك، وأن يبارك لنا فيك، وأن ينفع بك حيثما حللت، وأن يجزيك عنا وعن أمتك خير الجزاء.

أ.د. حسنين محمد ربيع

نائب رئيس جامعة القاهرة

obeikandl.com